المجلة العربية للعلوم
المجلد (٣) العدد (١)
الإصدار السابع
٢٠٢٥ (١-٢٣)

مدينة زويلة، أسباب قيامها وتوقف دورها التاريخي

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نوري عبدالسلام أحمد الضعواني
قسم التاريخ
نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٢ ديسمبر ٢٠٢٥م

الملخص

تُعد هذه الدراسة أحد بواكير الدراسات في منطقة الصحراء الليبية. نحن نعرف جميعا أن كل الدراسات تم تركيزها على الساحل لتوفرها على المصادر والمراجع، لتوفرها على بنية أساسية وضعها الاستعمار، فمنطقة الساحل بما فيها برقة وطرابلس تمثلها جذور استعمارية تركيزها على منطقة الساحل، فبالتالي أهملت منطقة الصحراء أو منظقة فزان إلا بما يخدم الأغراض الاستعمارية وهي أن بعض مناطق فزان كانت مناطق عبور تجارة عبر الصحراء أو التجارة البينية. كما وتعد هذه الدراسة مغامرة في صحراء قاحلة ومفلسة من حيث العشب والمصادر والمراجع، وما هو موجود نعتبره مصادر كلاسيكية. فالمادة المصدرية إذا ضعيفة جدا إلا المادة المصدرية المتداولة، وهي في حقيقة الأمر لا تشبع غليل الباحث فكل الدراسات السابقة كانت مركزة على الساحل طرابلس وبرقة، ولا تتناول فزان إلا عرضا من خلال تجارة عبور القوافل.

تهدف الدراسة إلى إبراز الأهمية الجغرافية والاقتصادية باعتبارها مركز مهم للإنتاج الاقتصادي والمبادلات التجارية التي تتم عبرها. اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي منطلقا منهجيا من أجل توصيف الوقائع والظواهر التاريخية التي حكمت التحقيب التاريخي لمدينة زويلة في التاريخ الليبي، وهو منهج فرض علينا منذ البداية متابعة سيرورة تطور الجغرافي والتاريخي والأنيروبولوجي لمدينة زويلة .

أظهرت النتائج التأكيد على أهمية الاعتبارات الجغرافية والبيئية والتاريخية وأدوارها المؤثرة في بروز نهضة حضارية بإقليم فزان، ولعلها نهضة، أسهم فيها عامل التجارة بجنوب الصحراء والحضارات المتعاقبة عليها إسهاما كبيرا، كما أظهرت الدراسة المساهمة في إعادة ترميم شذرات من التاريخ الوطني الليبي الممتد عبر الحقب والقرون. وهو إسهام لا نفتأ ندعو إليه في وقت تتجدد فيه الدعوة لإعادة كتابة تاريخنا بمنظور تاريخي ومنهج جديدين، خلصت الدراسة لتأكيد القول بأن هناك

except for the commonly used material, which, in reality, does not satisfy the researcher's needs. All previous studies focused on the coast of Tripolitania and Cyrenaica, only addressing Fezzan incidentally through the lens of caravan trade. This study aims to highlight the geographical and economic importance of Fezzan as a significant center for economic production and trade exchanges. The study adopted the descriptive analytical approach as a methodological starting point in order to describe the historical facts and phenomena that governed the historical periodization of the city of Zuweila in Libyan history. This approach was imposed on us at the beginning of following the process of geographical and historical development of the city of Zuweila.

The results highlighted the importance of geographical, environmental, and historical factors and their influence on the emergence of a cultural renaissance in the Fezzan region. This renaissance was likely significantly shaped by trade with the southern Sahara and the successive civilizations flourished there. The study also demonstrated the contribution to reconstructing fragments of Libyan national history

دولة في فزان تركت تراثا ضخما ورائعا لم توف حقها من البحث والاعتبار، في الوقت الذي اهتم بها غيرنا. ذلك ما يمثل نقيصة فينا وثغرة في توجهاتنا الثقافية يجب سدها، وأكدت النتائج أن التاريخ غدا اليوم يتجه حثيثا نحو دراسة تاريخ الشعوب، ونعني تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الذي يكاد يضيع ويتلاشى بين صخب الحروب، وبين ضجيج السياسة.

الكلمات المفتاحية: مدينة زويلة، أسباب قيامها، وتوقف دورها التاريخي، ومحيطها المكاني.

Abstract

This study is one of the earliest studies of the Libyan Sahara region. We all know that previous studies focused on the coast due to its abundance of sources and references, and because of the fundamental environment established by colonialism. The coastal region, including Tripolitania and Cyrenaica, represents a colonial legacy, with its focus on the coast. Consequently, the Sahara region, or Fezzan, was neglected except insofar as it served colonial purposes. In some parts of Fezzan, it served as a transit route for trans-Saharan trade or intra-regional trade. This study is an adventure into a barren desert, devoid of vegetation, sources, and references. What little exists can be considered classical sources. The available source material is therefore very limited,

spanning centuries and eras. This is a contribution we continue to advocate, especially now, as we strive to rewrite our history with a new historical and systematic perspective. The study concluded by asserting that a state in Fezzan left behind a vast heritage that has not received the attention it deserves, while others have shown it. This represents a deficiency in our approach and a gap in our cultural guidance that must be addressed. The results also confirmed that history today is increasingly focused on studying the history of peoples, specifically our social, cultural, and civilizational history, which is nearly lost amidst the turmoil of wars and the clamor of politics.

Keywords: Zawila city, reasons for its establishment, cessation of its historical role, its geographical context

*** المقدمة**

تُعد هذه الدراسة أحد بواكير الدراسات في منطقة الصحراء الليبية. نحن نعرف جميعا أن كل الدراسات تم تركيزها على الساحل لتوفرها على المصادر والمراجع، لتوفرها على بنية أساسية وضعها الاستعمار، فمنطقة الساحل بما فيها برقة وطرابلس تمثلها جذور استعمارية تركيزها على منطقة الساحل، فبالتالي أهملت منطقة الصحراء أو منطقة فزان إلا بما يخدم الأغراض الاستعمارية وهي أن بعض مناطق فزان كانت مناطق عبور تجارة عبر الصحراء أو التجارة البينية. كما وتعد هذه الدراسة مغامرة في صحراء قاحلة ومفلسة من حيث العشب والمصادر والمراجع، وما هو موجود نعتبره مصادر كلاسيكية. فالمادة المصدرية إذا ضعيفة جدا إلا المادة المصدرية المتداولة، وهي في حقيقة الأمر لا تشبع غليل الباحث فكل الدراسات السابقة كانت مركزة على الساحل طرابلس وبرقة، ولا تتناول فزان إلا عرضا من خلال تجارة عبور القوافل.

صحيح أن هناك أسباب موضوعية تقف وراء عدم إيلاء الاهتمام الكافي في دراسة الصحراء الليبية في حقبة العصور الوسطى، فالمصادر الجغرافية والتاريخية التي تناولت الصحراء الليبية خلال هذه الفترة، نادرة وبالتالي فهي لا تكاد تغطي هذه الحقبة تمام التغطية. بل إننا نجد من تناولها من الكتاب والباحثين العرب إنما تحقق لهم ذلك على وجه الإيجاز والاختصار. ولعل هذا الأمر وحده هو ما يدفع الباحث المؤرخ أحيانا إلى محاولة سد هذا النقص من خلال اللجوء إلى المتخيل التاريخي وفسح المجال لملكة الخيال في إعادة بناء الصورة التاريخية الناقصة. يضاف إلى ما تقدم أن الاحتلال الايطالي لفزان من وجه أول، إلى جانب ضغط الحضور الفرنسي على ذات الإقليم من وجه ثان لم يستمرا لعقود طويلة من الزمن ليترك بصماته جلية في مجال التأريخ الاقليمي للساحل الليبي. ولعله الأمر الذي لم يحفز العديد من المهتمين بالكتابة التاريخية على تدوين مجمل التغيرات التي عرفها الإقليم في سياق تدافعاته الوطنية والأجنبية، وبالتالي فقد استغرق اهتمامهم وصف الأقاليم التي تعنى بالجانب المتعلق بتدبير الشؤون الإدارية والاجتماعية الخاصة بطبيعة تلك البلدان، مما كان من نتائجه البحثية بروز اهتمامات علمية جغرافية نخص بالذكر منها في هذا السياق، دراسات الجمعية الجغرافية الملكية الايطالية حول

الجغرافيا البشرية التي قام بها أميليو سكارن، وجان ديبوا، وجان لثلو، وهي دراسات متى أمعن الباحث النظر في هندستها الوثائقية، أمكنه أن يسجل هيمنة النزعة الانقسامية التي تقف خلفها كالقول بأن الصحراء الليبية لا تمثل وحدة متماسكة حيث تبدو دراستها غير منتظمة بسبب التناول الجزئي الذي فرضته طبيعتها[1].

وبالفعل فقد مثلث تقارير القناصل الرسمية، ومدوناتهم الشخصية، ووثائق الدول والمؤسسات الرسمية والأهلية الأوروبية، إضافة إلى كتابات باحثين أوروبيين كان لهم حضور بحكم العمل أو نتيجة مخاطر الصدف، وكتابات الرحالة في القرن التاسع عشر الميلادي، مثل كل ذلك مادة تاريخية حقيقية للباحثين والدارسين المهتمين بتاريخ ليبيا. يقابل هذه الوفرة النسبية في المصادر والدوريات الخارجية ندرة في" المراجع الوطنية " سواء في شكل وثائق رسمية أو كتابات ومدونات بحثية ووثائقية[2].

تأسيسا على ما تقدم، فإن الكتابة التاريخية في ليبيا مرت بمراحل مختلفة تميزت كل مرحلة منها بسمات وخصائص معينة سواء من حيث اختلاف المواضيع المعالجة، أو من حيث تعدد الاتجاهات والرؤى والمقاربات والأدوات المنهجية الموظفة. وقد عرف البحث التاريخي خلال العقود الأخيرة، تراكما مهما، ورصيدا تاريخيا متنوعا لا يستهان به شكلت فيه الدراسات الأفريقية إحدى الحقول المعرفية التي حظي فيها تاريخ فزان باهتمام الباحثين والمؤرخين.

وهكذا، ومن خلال ما تيسر لنا من إطلاع على ما أنجز وما جد في حقل الدراسات التاريخية من تدوين وأبحاث ذات صلة بتاريخ فزان وعلاقته بدول إفريقيا جنوب الصحراء، فقد ارتأينا أن نولي اهتمامنا بهذه المدينة المهمة. ومن ثمة قفد كان اختيارنا لهذا الموضوع: مدينة زويلة أسباب قيامها وتوقف دورها التاريخي، يكتسي دلالة علمية وجغرافية تخص المسح التاريخي والجغرافي للمدينة وما تبلور بجوارها وبوحي منها من مساهمات تاريخية وحضارية في تاريخ ليبيا. ذلك ما حاولنا بالفعل الاجتهاد في طلبه وتركيز بعض الأضواء على جوانبه المختلفة، خاصة وأن معظم الذين كتبوا عن تاريخ المدينة لم يولوا لهذا الموضوع حقه من الأهمية في البحث التاريخي، بل ربما رجع ذلك إلى زاوية النظر التي وقفوا عندها بتركيزهم الضيق والمحدود في الحديث عن إقليمي برقة وطرابلس بوجه خاص.

من هنا كانت مقاربتي تنصرف في العمل على دراسة مدينة زويلة من زواية تريد لنفسها أن تتحصن برؤية ومنهج احترازيين يفكر في تحقيب وتوصيف دراسة تاريخ فزان منظورا إليه كأنموذج دال على الصحراء الليبية المرتبطة بعضها ببعض في تجارب وأنماط معيشية تكاد تتميز بنفس المصير التاريخي الذي عرفه السكان الليبيون في سياق تاريخ طويل من العنف التاريخي والسياسي الرمزي المتواصلين. ونحن هنا لا نجد حرجا في القول بأن اجتهادنا في إعادة بناء هذه الصورة التاريخية من شأنها فعلا أن تبعدنا عن ظلال التصور الايديولوجي الخاطئ الذي لا شواهد له في واقع التطور التاريخي والحضاري. إنه التصور الذي يزعم بأن العبرة ليست بالموقع الجغرافي – لإقليم فزان – وإنما بما يتوافر عليه من مصادر وطاقات بشرية قادرة على القيام بالعمل الذي يرمي إلى الاستفادة الكاملة للسكان. وهكذا فقد تناسى أو أغفل هذا التصور من حسابه أهمية فزان في حركة التجارة عبر

الصحراء، نظرا لموقعه الاستراتيجي المهم، من حيث هو معبر رئيسي نحو بلاد السودان.

ليس القصد من هذا المدخل التاريخي حول مدينة زويلة نشأتها وتطورها أن يكون عرضا شاملا يقف على تفاصيل ويدقق في الجزئيات ويؤرخ لكل مرحلة من مراحل المدينة، وإنما القصد منه تحديدا بلورة تصور تاريخي تركيبي يبرز لنا أهم المعالم الكبرى المحددة التي ساعدت على نشأة المدينة، ومن خلالها الوقوف على أهم المؤثرات التي كان لها الدور الفعال في تطور المدينة سلبا وإيجابا. مع ما صاحب ذلك كله من تطور تاريخي يمكن من الإلمام بهذه المدينة بصورة وافية بوجه عام. ذلك ما اعتبرناه تمهيدا ضروريا لنا في هذه الدراسة من أجل إدراك واضح يساعدنا على فهم الاتجاهات المختلفة لمواقف الباحثين إزاء هذه المدينة وتطورها. وقد تعين لنا هذا الرصد من خلال طرح مجموعة من الأسئلة التاريخية حول أسباب قيام مدينة زويلة نشوئها وانبعاثها، وآفاق تطورها. هل هي تعبير عن حركة تاريخية؟ أم انعكاس لحركة احتجاج اجتماعية؟ أم أنها تعبير عن أزمة اقتصادية؟ وما هي مبررات استمراريتها في كل هذه الحقب التاريخية؟

ونحن هنا في هذا التقديم عندما نطرح هذه الأسئلة هذا النوع من الطرح، فإننا نعتبر أن ثمة أسباب موضوعية وواجيها تحملها على النظر إلى تعدد وإختلاف الرؤى والسرديات التاريخية الكبرى التي تتحدث عن كيفيات استمرارية مفهوم مدينة زويلة خلال الحقب التاريخية، هذا فضلا عن كوننا لا نستبعد من زاوية اهتمامنا كم الانتقادات التي حكمت تلك الرؤى في طريقة تنظيرها لمفهوم المدينة من وجهات تاريخية عديدة حتى وإن اختلفت منطلقات وتعددت مساراتها.

ومهما يكن من أمر فإن الهدف الذي عنيناه في دراستنا إنما يستحضر أهمية هذا المعطى في النظر إلى مفهوم الدولة في ارتباطها بسيرورة التحقيب التاريخي، إلا بالقدر الذي يسعفنا على بناء الموضوع وجلاء الأبعاد السياسية التي وجهت مؤسسة السلطة بوصفها علاقة محورية تخدم هذا المنحى السياسي وتدفع به صوب البروز.

ونحن هنا عندما نشير إلى مزالق الباحثين في هذا الجانب، فإننا لا نقصد على الإطلاق ما يعبر عنه بعضهم من عدم إعجابهم ببعض الآراء أو اختلافهم، أو تقليلهم من قيمته العلمية بالمقارنة مع الرحالة الغربيين، فكل هؤلاء يصنفون في إطار التعامل العلمي الذي ليس لنا عليه مأخذ. إنما نقصد به أولئك الذين تعاملوا مع الفكرة بقسوة ظاهرة دفعتهم إلى أن يظهروها في صورة ملتبسة ومشوهة أخفت كل أثر إيجابي، وهي الصورة التي لم يفكر الباحثون في الاقتراب منها أو في محاولة تعميق البحث عنها.

على أن ما تجدر إليه الإشارة في هذا السياق من بناء موضوع البحث هو أنه على الرغم من أهمية الموضوع الذي تفكر فيه مضمونا ومنهجا، إلا أنه يظل يتميز بصعوبة بالغة التعقيد قد تقربه من الاستحالة متى أردنا أن نلتزم بقواعد المنهج العلمي السليم. تتمثل هذه الصعوبة من وجه أول، في ضخامة الحقبة الزمنية الممتدة التي تكاد تغطي فترة حكم بني الخطاب. وهي حقبة زمنية تاريخية تشمل أدوار كاملة من التاريخ المحلي بليبيا الذي يلزم دراسته في ضوء مقاربات علمية تستحضر أهم الكتابات التي أرخت لهذا الموضوع.

وهذا فيما يبدو لنا أمر صعب خاصة وأننا نطمح إلى تقديم ومعالجة هذا التصور من خلال دراسة جزء من نتاج بعض الباحثين الذين نتصور أنهم قد كتبوا حول هذا الموضوع. ويمكن أن يكون عنوان البحث " مدينة زويلة أسباب قيامها وتوقف دورها التاريخي" ذا دلالة واضحة على موضوع البحث والقضايا التي سيعرضها. هذا عن أهمية الموضوع الذي اخترناه إطارا مرجعيا بعملنا في بناء هذا البحث.

أما عن المنهج الذي حكم طريقة في معالجة قضاياه وظواهره، مع الانتباه إلى الصعوبات التي واجهتنا أثناء هذه المعالجة فإن مباحث فصول هذا العمل تعكس وجهته ومقارباته. فقد اتخذنا من المنهج الوصفي التحليلي منطلقا منهجيا من أجل توصيف الوقائع والظواهر التاريخية التي حكمت التحقيب التاريخي لمدينة زويلة في التاريخ الليبي. وهو منهج فرض علينا منذ البداية متابعة سيرورة تطور الجغرافي والتاريخي والأنبروبولوجي لمدينة زويلة تحت حكم بني الخطاب.

*** أسباب قيام المدينة**

ارتبطت مسألة نشوء الدول بإشكالية " التعقد الثقافي "، أي بظهور الثقافات المعقدة والتي طرحت من خلال المجادلات حولها العديد من التساؤلات الخاصة بجوهر التعقد الثقافي. ونحن نقصد بهذا الاصطلاح تعدد وثراء العناصر الثقافية التي شكلت الهوية الثقافية والاجتماعية لفزان — زويلة.

تحاول هذه الورقة القيام بمراجعة تحليلية لأشكال التعقد من داخل ما أفرزته المعطيات الأركولوجية الحديثة المتعلقة بالوضع الثقافي للمنطقة الممتدة من وادي النيل النوبي والصحراء الليبية إلى الحدود الغربية منه. فالدراسة تنطلق من فرضية مفادها أنه لانجاز تفسير شامل للمفهوم المركب الثقافي، فإنه يتعين القيام بدراسة الدوافع التي أفضت إلى نشوء المدن ولأسباب تعدد الأشكال التي اتخذتها. وتسعى الدراسة إلى اعتماد تفسير تطوري لهذه الظاهرة، وهو ما سيفرض بالضرورة إعادة صياغة المفهوم نفسه ودمجه مع متغيرات خاصة بحالات منفردة. من هنا المحاولة في هذه الدراسة لتحليل ظهور المدن انطلاقا من فاعلية الأنظمة المختلفة لانتقال السمة الثقافية[٣].

تجادل الدراسة بأن مصطلح " الدولة والمدينة والتمدن " لابد من إخضاعها لمراجعة جذرية، ذلك أن الجانب الحاسم لهذه الظاهرة لن يكون هو وجود أو عدم وجود منشئات وصروح معمارية ضخمة أو سمات أخرى، وإنما يجب التعبير عنه من خلال أنماط سلوكية مرتبطة بالتمدن وبالشفرات الثقافية للاتصال والتلاؤم الشامل وما إلى ذلك[٤].

ومن هنا، ولكي يكتمل البحث عن جغرافية وتاريخ فزان– زويلة يجدر بنا أن نضعه في إطاره العام كجزء من الأقاليم الليبية، وإعطاء لمحة جغرافية وتاريخية موجزة عن الطبيعة الجغرافية لإقليم فزان بصفة عامة عبر مراحل وحقب تاريخية مختلفة، سعيا منا إلى تكوين فكرة عن المحيط الجغرافي لفزان – زويلة، والمناطق المجاورة. خصوصا إذا نحن وضعنا في الاعتبار هذه المعطيات التي تحكمت إلى حد بعيد في الإمكانيات الاقتصادية للإقليم، وفي نشاط ساكنيها. فالمصادر، في هذا الباب تكاد تقر بأن طرابلس تشمل ثلاثة أقاليم جغرافية ومناخية وهي: إقليم الساحل، وإقليم الجبل، وإقليم الصحراء. أما إقليم الساحل فإنه يتمتع بوفرة نسبية من المياه من تأتت من الأمطار والأودية، ومن باطن الأرض" المياه

الجوفية ". ويضاهي إقليم الجبل إقليم الساحل في وفرة المياه. وأما إقليم الصحراء، وإن تمتعت بعض مدنه ببعض المياه، فإنها نادرة مقارنة بالساحل والجبل[٥].

وتكفي الاشارة في السياق إلى أن أغلب المصادر الجغرافية العربية الأولى تكاد تفتقد إلى العديد من التفاصيل، وبالتالي فهي هنا تكتفي بمجرد التلميح أو الإشارة إلى بعض المعطيات العامة التضاريسية والمناخية، ذلك إن تماثل المعلومات التي تقدمها هذه المصادر في مراحل تاريخية مختلفة تحيلنا إلى القول بأن الملامح الجغرافية والمناخية العامة لا يطرأ عليها تغير يذكر حتى يومنا هذا. ومن هنا فإن المتمعن في المراجع الجغرافية الحديثة يكاد يخلص إلى الوضع الذي تلمح له المصادر العربية الأولى[٦]. وتؤكده تأكيدا.

يضاف إلى هذا الاختلاف، والتمايز التضاريسي بين أقاليم طرابلس الثلاثة " الساحل، والجبل، والصحراء ". اختلاف في نوعية التربة. إن هذا التباين الواضح في التربة ووفرة المياه بين مناطق إقليم طرابلس الثلاث، نتج عنه بالضرورة تنوع في اقتصادياته. فامتدت في مناطق الساحل الزراعات البعلية والسقوية من حبوب " قمح وشعير" وأشجار مثمرة، وقد ضاهت منطقة الجبل المنطقة الساحلية في غراسة الأشجار المثمرة، كما شهدت زراعة الحبوب التي ارتكزت بشكل خاص على الشعير، بل إنها عرفت كل من منطقة الساحل والجبل زراعة الحبوب، إلا أنهما اختلفتا في نوعيتها. فالقمح كان على ما يبدو الأكثر زراعة ورواجا في منطقة الساحل، في حين كانت زراعة الشعير غالبة في الجبل. ولعل السبب في ذلك كما تقر بذلك المصادر أن الشعير أقدر على التأقلم مع ظروف التربة المائلة للملوحة، والارتفاع المفاجئ لدرجات الحرارة " القبلي ". أما منطقة الواحات الصحراوية فقد بقيت مركزا لإنتاج التمور[٧].

هذا الاختلاف، وذاك التباين أسهما معا في تحديد مجالات النشاط الرعوي بالإقليم ونوعيته، فانتشرت تربية الأغنام والماعز والأبقار في المنطقتين الساحلية والجبلية. أما المنطقة الحارة والجافة الصحراوية، حيث تفتقد الماشية إلى المراعي الخصبة، فكانت الإبل مادة نشاط الرعي الأولى والوحيدة[٨].

إن هذا التباين في الامكانيات كان وراء قيام حركة تبادل واسعة النطاق، بحيث كانت مدن الساحل تمد الجبل بما لا يتوفر في أراضيه من منتجات، وفي المقابل تستجلب ما تحتاجه منه، وهكذا الأمر مع إقليم الصحراء[٩]. وتعد فزان والمناطق المحيطة بها مستوية السطح خصبة التربة تغذيها مياه وفيرة، وتتسع بساتين النخيل وتمتد إلى مسافات كبيرة، ويبدو أن ساكنيها كانوا يولون بالزراعة عناية تفوق عناية غيرهم من سكان المناطق المجاورة[١٠]

ونحن هنا عندما نعرض للظاهرة التجارية بفزان، فإننا نجد أن مسالك هذه التجارة اتخذت اتجاهين مركزيين: إحداهما محلي، والآخر خارجي. فالأول هو ما يرتبط بغدامس من طرابلس وأفريقيا وشمال المغرب، وما يربط ذلك من طرق رئيسية وثانوية. أما الاتجاه الثاني، وهو الاتجار مع السودان جنوب الصحراء، وتجارة أوروبا التي تكون أول محطاتها الموانئ المنتشرة على الساحل مثل ميناء طرابلس[١١].

ومن هنا، ولكون أن هذه الدراسة تبحث أصلا في تجارة فزان وغدامس مع البلدان المجاورة لها، فإن تركيزها سنحصره إلى جانبين الأول ويتعلق بإمكانيات غدامس،

ودورها في التجارة المحلية، أما الثاني فيبحث في أهمية المواد المنتجة محليا، واستغلال الفائض منها قي التجارة الخارجية[١٢].

لقد سبق وأن تحدثنا عن جغرافية ومناخية فزان، واتضح لنا في معرض ذلك أن البيئة الجغرافية لفزان امتازت بتنوع في إمكانيات اقتصادياتها المتباينة. وأن هذا التباين في الامكانيات كان سابق أسباب قيام حركة تبادل واسعة النطاق، حيث تمد المناطق المجاورة لها بما لا توفر في أراضيها من منتجات، وفي المقابل تستجلب ما تحتاجه منه. هذا التنوع البيئي والاقتصادي الذي شمل الانتاج الزراعي، الحيواني، الحرفي، يؤكد لنا أن نوع السلع والمعروضات التجارية التي كان يدور حولها النشاط التجاري بفزان، إنما كانت تشمل المنتجات الزراعية التي تزخر بها هذه المنطقة، مثل الحبوب، والتمور، ومن المنتجات الحيوانية مثل الجلود والمصنوعات التي أقيمت عليها[١٣].

بهذا المعنى إذن اعتبرت التجارة من أهم الموارد التي اعتمدت عليها فزان، خاصة فترة حكم الدولة الخطابية بها، ذلك أنه ليس من المستبعد أن تكون قد سيطرت على الطرق التي تمر بها هذه التجارة عبر الصحراء الكبرى. فقد كانت هناك تجارة داخلية متمثلة في الأسواق المحلية التي يرتادها الناس في المحلات القريبة منهم. والتي عن طريقها كانت حركة الاستيراد والتصدير. والظاهر فيما يبدو أنه من خلال هذه الاستقراءات، لا نقف على أي إشارة تدل على تنقل تجار زويلة داخليا، باستثناء تلك الإشارات التي تدل على أن تجارها كانوا يرتادون تجارتها الخارجية.

وبالفعل فقد عكست هذه الأهمية شبكة المواصلات، والطرق التي تخترق فزان، والموصولة بتخوم ما وراء الصحراء. وقد أسهبت النصوص في وصف تلك المسافات الفاصلة بينها، حيث نجد أن المسافة الفاصلة بين زويلة التي تبعد عن كاوار خمس عشرة مرحلة، وتتراوح بينها وبين بلد كانم أربعون مرحلة. ومن زويلة يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم[١٤]

وإجمالا نستطيع القول إن تجارة فزان الخارجية أسهمت بحق في إنماء اقتصادها المحلي، وأدرت إلى مزيد من الرخاء والثراء على أهلها أو ساكنيها. بل إن العامل نفسه قد ساعد على توفر الأمن والاستقرار الذي نعمت به في فترة الدولة الخطابية، وفي علاقاتها الخارجية الواسعة.

ونحن هنا متى انتبهنا إلى أهمية الموقع الذي احتلته فزان على صعيد التجارة الخارجية. فإننا سنجدها ذات خطوط متقاطعة بين شمال وجنوب وشرق وغرب غدامس. وهو تقاطع يكتسي دلالة اقتصادية من حيث تنوع المسالك التجارية للقوافل التي عرفتها فزان في إنماء نشاطها الاقتصادي. وقد تضاعفت أهمية هذه الظاهرة التجارية نتيجة، لتوفر السلع المعروضة، ونتيجة أيضا لوقوع هذه الأسواق على الطرق التجارية التي تربطها بالمشرق والمغرب الإسلاميين. وذلك ما يفسر لكثير من الباحثين لماذا ازدهرت الأسواق التجارية في غدامس، خاصة وأن هذه الأسواق كانت تحفل بأنواع الثمار و المحصولات الزراعية. وبالتالي فلم يكن من المستبعد أن تكون هذه الأسواق قد عرفت ازدهارا كبيرا وإقبالا واسعا من التجار عليها في كثير من الأوقات[١٥].

*** الأصول التاريخية والتكوين البيئي**

*** زويلة الاسم وجذوره التاريخية:**

قبل معالجة الإشكالية الرئيسية لابد من التعرض للعديد من الإشكاليات الفرعية التي يثيرها الموضوع من أجل تحديد بعض المفاهيم الأساسية التي ينبغي حسمها قبل الدخول لمناقشة الإشكالية المركزية.

ومن هذه المفاهيم: كيف نحدد المفهوم الدقيق ل " زويلة وجذوره التاريخية ؟ وعن نشأة زويلة وتطورها التاريخي خلال الحقب التاريخية ؟ وما هي الوضعية التاريخية لزويلة قبيل مجيء دولة بني الخطاب الهوارية ؟ وما هي دواعي التأسيس أو الظرفية التي وجدت فيها المدينة ؟

ارتبطت مسألة نشأة زويلة وتطورها التاريخي خلال الحقب التاريخية بإشكالية " التعقد الثقافي " أي بظهور الثقافات المعقدة، والتي طرحت من خلال المجادلات حولها العديد من التساؤلات الخاصة بجوهر التعقد الثقافي.

تحاول هذه الورقة إحداث مراجعة، من واقع أحدث المعطيات التاريخية بغية الحياد والموضوعية في البحث. هذه خطوة أملت علينا ربط هذه الإشكاليات بالكتابات التاريخية حول الموضوع.

إذا كنا لا نستطيع الجزم مع المؤرخين والجغرافيين العرب لنا نجهل في الحقيقة الجغرافية المتعارف عليها على اصطلاح " فزان "، فإننا لن نعتبر هنا فزان إلا وادي الآجال الغربي ومنطقة جرمة المرتبط بها عادة فزان حتى القرن الثاني عشر الميلادي. وإذا كان من المؤكد أن جرمة تتفق مع جرمة القديمة، فإنه لا يمكن القبول بشكل مطلق بالمعادلة فزان = فازانيا, ففازانيا القديمة كانت تشمل بالإضافة إلى جرمة تخوم تاسيلي شاملة غات ومدينة غدامس – سيداموس.

ونحن هنا لا نجد حرجا في تمييز زويلة عن فزان لأن التسمية الأخيرة كانت تعني بالنسبة للمؤلفين العرب، حتى القرن الثاني عشر الميلادي، وادي الآجال موطن الجرامنت وحاضرته جرمة، ويجب الانتظار حتى بداية القرن الثالث عشر الميلادي ليكتب ياقوت الحموي " ت 622 ه " من بعد، أن زويلة هب حاضرة فزان حتى ذلك الزمن، كان هناك إقليمان مختلفان؛ زويلة أو أرض زويلة، وفزان أو بلاد فزان[١٦].

تقع مدينة زويلة إلى الجنوب الشرقي من سبها وتبعد عنها بحوالي 170 كم [١٧]. وقد لعب موقع زويلة المتوسط دورا كبيرا في ازدهار تجارة القوافل بين الشمال والجنوب. وقد عبر الأصطخري عن هذا الدور بقوله " وأما زويلة فإنها من حد المغرب وهي مدينة وسطة لها كورة عريضة وهي متاخمة لأرض السودان[١٨]، ويؤكد المؤرخ الحموي هذا الموقع المتوسط في قوله " تقع زويلة مقابل أجدابيا في البر بين بلاد السودان وأفريقيا، وهي أول حدود السودان[١٩]. ففي هاتين الإشارتين من المصادر ما يؤكد أن زويلة متاخمة لبلاد الكانم والبرنو، وهو ما منحها مكانة تجارية كبيرة باعتبارها أولى حلقات الاتصال بين الكانم والبرنو وشمال أفريقيا. ويعد الطريق المار من زويلة إلى بلاد السودان من أقدم الطرق التي ربطت شمال الصحراء بجنوبها، حيث المؤرخ اليعقوبي في فترة مبكرة إلى الطريق الذي يخرج من سرت إلى ودان ثم زويلة حتى يصل إلى كاوار[٢٠].

إن ما يدل على شهرة زويلة التجارية في ذلك الوقت وجود تجار من مناطق بعيدة عن أفريقيا حيث ذكر اليعقوبي

أن بها أخلاطا من أهل خراسان والبصرة والكوفة ولا شك أن ما جلب هذه العناصر إلى منطقة وسط الصحراء لم يكن سوى التجارة، وبذلك أصبحت زويلة مركزا للتجار العرب، كما وجد فيها الأباضية مكانا مناسبا للسيطرة على تجار القوافل، وقد اشتهرت زويلة بالسيطرة على تجارة الرقيق كما اشتهرت بالتجارة في الجلود حتى اشتهرت الجلود الزويلية[٢١].

ويوجد في وسط زويلة حصن عتيق مبني بقوالب ضخمة من اللبن حيث يوجد إلى الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة بقايا للمسجد العتيق، والذي لم يتبق منه سوى جزء من الحائط الشرقي والمنارة. وأما باقي المبنى، فتوجد قبور تتكون من سبعة أضرحة، والتي يرجح أنها تعود في الأصل إلى أسرة بني الخطاب أمراء زويلة " 4 هـ – 6 هـ "[٢٢].

*** تأسيس المدينة**

لم يدع أحد من الباحثين قدرته على تحديد التاريخ الدقيق لظهور دولة بني الخطاب الهوارية بزويلة، ومن تم تأسيسهم لمدينة زويلة، باعتبارها وعاء للسلطة والسياسة، رغم كثرة المعلومات المتوفرة عن دول موازية لها، التي شكلت تجسيدات و تمظهرات لهذا المفهوم. ومهما يكن فإن تحديد ذلك التاريخ ليس له ارتباط بموضوعنا، إلا من أجل الإشارة إلى أن السلطة، باعتبارها جوهر مسألة الدولة، قديمة جدا، وأنها ترتبط بالبدايات الأولى لتكون الاجتماع السكاني في المدينة. إنها، في الأمر، إحدى الضرورات التي توصلت إليها المدينة في بواكير أيامها.

تتعدد دلالات المصطلحات بتعدد الزوايا التي ينظر منها إلى تلك المصطلحات، ولعل الدلالات اللغوية المعجمية تساعد على توضيح معاني تلك المصطلحات ومضامينها، على الرغم من تطور تلك المعاني والمضامين، تطورا جعل المشقة واسعة بين الأصول اللغوية للكلمة والمعاني والمضامين التي اكتسبتها فيما بعد.

وقبل الإسهاب في إلقاء الضوء على تأسيس المدينة، يجذر بنا أن نلخص للقاري مما سبق ذكره في أطر رئيسية توضح جملة من العوامل والأسباب التي تكمن وراء نشأة وازدهار المدينة التي يمكن إيجازها في جمل مختصرة: –

١– العامل الأول: إن واحة زويلة نفسها لا تشغل إلا حيزا محدودا جدا من جملة مساحتها، فضلا عن وفرة مياهها، الأمر الذي تطلب زراعة مساحات كبيرة من أشجار النخيل والحبوب خاصة عندما توافد على المدينة أعداد كبيرة من الرقيق .

٢– العامل الثاني: حاجة سكان المدينة إلى أسواق تجارية، لتصريف منتجاتهم الزراعية والصناعية، وهذا ما أثبتته الأحداث التاريخية، بأن أصبحت زويلة سوقا تجاريا يرتاده التجار من كل حذب وصوب.

٣– العامل الثالث: وقوع مدينة زويلة على مفترق الطرق التجارية، إذ أصبحت محطة عبور وسوقا صحراويا، ونقطة لتنظيم المعاملات التجارية موانئ الشمال، والعديد من المناطق جنوب الصحراء، حيث كان تجارها يمثلون بجانب معاملاتهم التجارية الخاصة، حلقة وصل وتنظيم لإعداد القوافل، وإشراف ممثليهم على سلامتها، وتوجيهها وتدبير شؤونها من استرداد وإعادة تصدير في كلا الاتجاهين.

فما هي يا ترى دواعي التأسيس أو الظرفية التي وجدت فيها المدينة ؟

إن المتمعن في الروايات التاريخ وأحداثه خلال الفترة – تأسيس المدينة – لا يجد صعوبة في إدراك المغالاة التي وقع فيها هؤلاء الرحالة، ومن تبعهم من مؤرخينا المحدثين. ولابد أن أشير بدءا من أنهم استندوا في رأيهم هذا على روايات في غالبيتها متأخرة لا توازي روايات باحثينا الرواد مثل: محمد سليمان أيوب لا من حيث أسانيدها، ولا من حيث نصوصها. ثم إن هذه النصوص، إن صحت، تسجل حالات فردية لا يمكن أن تستنبط منها قاعدة عامة تمثل سياسة تأسيس دولة، أو وقف مجتمع بأسرة، أو وجهة نظر الرأي العام فيه. والذي يثير الانتباه في هذه النصوص التاريخية أو مصادرها، هي اتصالها ببيئات قبلية ومفاهيم بدوية، وهذا من دون شك أمر طبيعي في تلك الفترة التاريخية.

لم تكن زويلة تضم سوى جزء فقط من فزان الشرقية الحالية، وقد أسست في أواخر القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، أو في أوائل القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي[٢٣]. يسعفنا في هذا الاستدلال إشارة الإدريسي، في مؤلفه " نزهة المشتاق"، وهي إشارة تكتسي أهمية بالنسبة لموضوعنا وذلك عندما نجده ينسب أن إنشاء زويلة إلى عبد الله بن الخطاب الهواري، مؤسس أسرة بني الخطاب التي حكمت فزان ما بين القرن " الرابع الهجري/ العاشر الميلادي – السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي "، وهو بهذا يخالف المؤرخين الأوائل، وينسى الحروب الأباضية في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، التي زويلة مسرحا لها[٢٤].

ويبدو أن أول أمر بني الخطاب في زويلة، أنهم كانوا عمالا فيها للمنصور بن بلكين، وكانت زويلة تابعة لعامله على طرابلس " عوصلة بن بكار" وعامله على زويلة ابن الخطاب، ففي سنة 381ه ختن المنصور ولده باديس، فأرسل إليه عوصلة عامله على طرابلس، هدية فيها مائة حمل من المال، وكان قد أرسل عامله على زويلة ابن الحطاب هدية هو – أيضا – بهذه المناسبة، من ضمنها زرافة، وبعض مصنوعات السودان[٢٥].

وبحكم الموقع الذي تمتعت به زويلة في قلب الصحراء بإقليم فزان، حيث طرق القوافل التجارية، أصبحت تشكل أضخم سوق تجاري كبير، فكان لزاما من قيام دولة محلية تقوم بحماية هذه القوافل، وضمان سلامتها. وهذا لا يتأتى إلا عن طريق نظام سياسي دقيق للمراقبة على اللصوص وتتبعهم، لتجني ثمرة ذلك العمل بتوسيع دائرة اقتصادها.

وقد شهدت مدينة زويلة عصرها الذهبي إبان فترة حكم أسرة بني الخطاب وتسنى لهذه الدولة ضرب الدنانير الذهبية الزويلية، التي عثر على عدد منها في زويلة، كما تم صك هذه العملة في زويلة سنة " 414 هـ/ 1024م "، وهكذا، أصبحت زويلة نتيجة لإثبات مركز عملتها، البنك المركزي للعمليات المصرفية المتعلقة في طول الصحراء وعرضها[٢٦].

واللافت للنظر في هذا السياق أن المصادر لا تذكر الدولة الخطابية بالتفصيل، إلا أنها تورد هذه الأحداث بصورة مقتضبة، وتذكر أن عبد الله بن الخطاب الهواري هو الذي قام بتأسيس زويلة ليجعل منها حاضرة له. وقد حدث أن تولى على زويلة بين عامي 306ه – 568 هـ عدد من حكام أسرة بني الخطاب الهوارية، إلا أن نفس المصادر لا تورد لنا أسماء هؤلاء السلاطين. فقد كتب الباحثون عن هذه الأسرة بصورة مقتضبة، دون التطرق إلى ذكر أمراء هذه الأسرة،

وفترة حكم كل منهم، إلا أن زويلة قد شهدت عصرها الذهبي فترة حكم هذه الأسرة.

ونكتفي الآن بهذا القدر من الاستطراد حول هذه النقطة لنستكمل الحديث ثانية عن لماذا سميت زويلة بهذا الاسم؟

ولكن المهم هنا ليس هو متى ظهرت زويلة ؟ وإنما المهم هو متى بدأت دراسات الباحثين والرحالة حولها، ومتى بدأ الاشتغال بها سواء بالإنصاف أو الإجحاف ؟ وهذا أمر موغل في القدم، كما رأينا، أما المصطلح ذاته فلا يعني شيئا أكثر من إقرار أمر واقع وإطلاق وصف على الدراسات التي كانت قائمة بالفعل قبل ذلك بقرون عديدة بغض الطرف عن مدى علمية هذه الدراسات أو موضوعيتها، فهذه مسألة أخرى قابلة للنقاش حتى فيما يتعلق بالأبحاث المتأخرة في العصر الحاضر.

أما لماذا سميت زويلة بهذا الاسم ؟ فإننا إلى الآن لم نعثر على تعليل مقنع لسبب التسمية بهذا الاسم. فكل الذي قيل عنها، هو أنها حديثة ليست من مدن ما قبل التاريخ في فزان، وأنها وجدت في العصر الإسلامي، وأنها تحولت إلى حاضرة سياسية لإقليم فزان، وأنها كانت الحاضرة السياسية والتجارية.

يسعفنا في هذا الاستدلال إشارة محمد سليمان أيوب، في مؤلفه " مختصر تاريخ فزان "، وهي إشارة تكتسي أهمية بالنسبة لموضوعنا وذلك عندما نجده يقول: ولقد سميت مدينة زويلة بمسميات عدة، فعلى سبيل المثال لا الحصر: كنوسوس الصحراء، سيلالا ، زويلة. فكنوسوس الصحراء سميت بهذا الاسم، تشبيها لها بقصر كنوسوس بكريت، إذ لم يكن لهذا القصر، أو المدينة سور، إذ يعتقد سكانها أن بعدها ومناعتها في وسط البحر، لهو كفيل بحمايتها من العدو، وكذلك الحال بالنسبة لسكان مدينة زويلة، فإنهم يعتقدون أن بعدها ومناعتها في وسط الصحراء لهما كفيلان بحمايتها من العدو[٢٧]. أما سيلالا " سيلة " فهي ملتقى القوافل حيث سميت الرحلات التجارية إلى فزان بالرحلات إلى سيلة[٢٨]. وسميت زويلة بعد الفتح الإسلامي بلد الأشراف، كما سميت بزويلة بني الخطاب، وبزويلة السودان احترازا عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي قرب تونس[٢٩]. فآيا من هذه المسميات فهي لا تعدو على كونها مركزا رومانيا قديما[٣٠].

إن حكم بني الخطاب استمر حتى نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، عندما وصل المغامر قراقوش إلى فزان قادما من مصر، وقضى على آخر أمير من هذه السلالة بتعذيبه حتى الموت، وكان يرجو من وراء ذلك الضغط عليه ليعترف بمظان كنوزه المخبأة، وتتمثل البواعث على هذه الحملة في الإشارات التي سنقف عليها لاحقا:

عندما تزايد ضغط الفرنجة – خلال فترة الحروب الصليبية – على الخليفة الفاطمي، طلب مساعدة نور الدين زنكي سلطان الشام، فأرسل إليه قائده صلاح الدين الأيوبي فبعث إليه " أسد الدين شيركوه " عم صلاح الدين إلى مصر الذي قام بدوره بتنحية الخليفة والاعتراف بالخليفة في بغداد. وفي العام 569 ه فتح توران شاه أخو صلاح الدين اليمن لصالح أخيه، وبعد ذلك اقترح ابن أخيه المظفر تقي الدين على صلاح الدين القيام بفتح المغرب فوافقه على ذلك وأخذ جميع الترتيبات اللازمة لهذه الحملة إلا أنه تراجع عن مشروعه في اللحظة الأخيرة، لاعتماده أنه قد يصطدم بمقاومة فائقة[٣١].

إلا أن عددا من صغار القادة لم يكن راضيا عن ذلك فهرب شرف الدين قراقوش، وإبراهيم بن قراتكين من وحداتهم غربا، إلا أنهما انفصلا عن بعضهما بعد حين، فقد فتح قراقوش بقواته المشكلة في أغلبها من قبيلة الغزسنتريا " سيوة "، وأمر بالخطبة للسلطان صلاح الدين ولسيده المظفر، وبهذا يعترف بسيادتهما، وقد أبلغها ذلك، ثم أصبح صاحب أوجلة وزويلة وطرابلس وقابس وكثير من المدن والمناطق الأخرى[٣٢].

وأثناء عملياته اللاحقة لقي تأييد أحد أحفاد الملثمين، واسمه علي بن إسحاق الميورقي – أي أنه من جزيرة ميورقة – وبعد وفاته دعمه ابنه يحي إلا أنه وقعت نزاعات بين الطرفين، فانضم يحي إلى قبيلة ذباب العربية القاطنة في جبال طرابلس الساحلية ونازلا معا قراقوش الذي كان قد أسس حكمه في تلك الأثناء في ودان، إلا أنه حوصر هناك. وعندما نفذت المؤن من المدينة استسلم بعد أن وضع شرطا واحدا وهو أن يقوده ولده إلى القتل، وعندما وعندما خرج من المدينة إلى المعسكر المنتصر خاطبه ابنه قائلا إلى أين تقودنا يا ولدي ؟ فأجاب إنك تقودنا إلى حيث أرسلنا أسلافنا. وجرى صلب قراقوش بناء على أمر يحي، وكان ذلك في عام 609 هـــ [٣٣].

وقد خلف قراقوش ولدا آخر قدر له أن يبرز في أحداث هذه المنطقة وعرف ابن قراقوش بجرأته ومروءته، وأسند إليه الخليفة الموحدي المستنصر أن يتولى قيادة إحدى الوحدات في الحاضرة، إلا أن الحياة الهادئة لم ترق له فعاد إلى ودان حيث كان ظهوره مؤشرا لحروب جديدة.

إن ملك كانم " دونما ديبلام " الذي وسع فتوحاته حتى تلك المناطق هاجم هذا المشاغب، وتمكن منه وقتله وأرسل رأسه إلى حاضرة كانم ليعرض أمام أعين الناس، وقد جرى ذلك في سنة 656 هـــ / 1258م[٣٤]. وحسب ما تذكره المصادر في هذا الصدد فإن اهتمام الكانميين بالسيطرة على المناطق الشمالية لمملكتهم، لحماية الطرق من الصعب اختراقها بسبب انعدام الأمن فيها. وإن امتداد النفوذ الكانمي لتلك المدن، لهو دليل على السيطرة التامة على شبكة الطرق التي ترتبط بمملكتهم الفتية[٣٥].

لقد اتخذ الحاكم الكانمي لفزان، أو مندوب السلطان بها، من مدينة تراغن قاعدة لحكمه، فقد استقر معه في المدينة عدد كبير من الجنود الكانميين الذين عرفوا باسم الكانوري ولازالت آثار قصر الحاكم، ومساكن الجنود موجودة غربي تراغن، و لم يستقر الكانميين طويلا في فزان، إذ سرعان ما ظهر الخرمان في وادي الآجال – كما أسلفت آنفا – فقد مد الخرمان نفوذهم حتى بلغ زويلة شرقا، وسوكنه شمالا، وكذلك الحال بالنسبة إلى غدامس. وذلك في حدود القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إلا أن الخرمان عندما أرادوا أن يبسطوا سلطانهم على جهات غات، وما يجاورها، اصطدمت بقوة جديدة ابتدأت في الظهور، آلا وهي قوة الطوارق[٣٦].

ونحن هنا نرى بأنه إذا كانت دولة بني الخطاب ظهرت في زويلة في الفترة من بداية القرن العاشر الميلادي حتى سنة 1174 م، فإن حال فزان ووادي الآجال لم يكونا بأحسن حظا من الفترة التي سبقت قيام هذه الدولة وكذلك بعد ظهورها، بل كانت فترة ارتخاء وشبه فوضى في فزان سادت بعض المناطق وعلى الأخص وادي الآجال الذي كان حاضرا وغالبا في نفس الوقت طيلة الفترة التاريخية من سنة

22 ه – 398 هـــــ، كما أننا لم نجد ذكرا لأي مكان في وادي الآجال بما في ذلك مدينة جرمة التي كان يقال عنها " العظيمة " والتي لم تعد كذلك. وبعد سقوط زويلة في يد قراقوش، جاء بعده إلى فزان الكانميين الذين يظهر أنهم لم يعطوا هذا الوادي أهمية تذكر، الأمر الذي ضعف من إهمال فزان أرضا وبشرا ومجتمعا فسهل بالتالي مهمة القادمين إليه لاقتحامه والتحكم فيه. وهذا ما حصل فعلا في هذه في هذه الفترة التي ظهر فيها القوم المعروفين باسم " الخرمان " في هذا الوادي. فقد عادت الفوضى لهذه المنطقة، وتضاربت الأسماء والألقاب لدرجة أنهم استخدموا أسماء لم تكن موجودة أو وجدت اسميا، ولكن لم نجد لها مكان مثل اسم مدينة خرمه وغيرها، ثم بعد ذلك جاءت دولة أولاد محمد الفاسي إلى فزان، واتخذت من مدينة مرزق عاصمة لها بدلا من زويلة وتراغن اللتين كانتا حاضرتين لفزان إلى وقت قريب، ولكن هذه الدولة دخلت في صراع من أجل السلطة في فزان الغربي " جرمة " وربما غيره مع الخرمان مبكرا، وكان المكان هو الضحية طبعا، وأخيرا حسم النزاع وبقي أولا محمد واختفى الخرمان، ولكن شيئا لم يتغير في الوادي وأنشئت دولة مرزق حواضر لها في وادي الآجال الغربي " عمالات إدارية " في كل من " القلعة " في الوادي الشرقي، " تكركيبة " في الوادي الغربي، ونسيت جرمة تماما ولم يعد لها ذكر. أما وادي الآجال عامة فإنه لم يشهد أي تقدم إلى الأمام بالرغم من أن النواحي الأمنية فيه كانت قد تحسنت عن قبل، وأن الضرائب منه كانت تصل إلى مرزق تباعا، وأن الناس شعروا بقيمة الدولة وهيبته[٣٧]. ثم بعد ذلك جاء العثمانيون محطمين لدولة أولاد محمد، مبقين لفزان عزلتها وتأخرها الحضاري بعد أن كانت الإقليم والمدينة في مقدمة الحضارات الصحراوية التي كانت منذ القدم في هذا المكان " جرمة "[٣٨].

الواقع أن المصادر لا تذكر شيئا مفصلا عن هذا الجانب المهم، فيما يتعلق بالمظاهر الاجتماعية في فزان – زويلة. فجاك ثيري" THIRE " يقدم لنا وصفا لبعض العادات والتقاليد الزويلية، ولو أنه مختصر جدا، إلا أنه يعطينا صورة واضحة عن مدى تأثر أهل زويلة بالتقاليد السودانية قائلا: " وعن طريق تجارة الذهب والرقيق مع بلاد السودان، بالرغم من صعوبات السفر، فقد تبنت الصحراء الليبية بعض العادات والتقاليد السودانية، وقد ساهم الزواج المختلط، ووجود الرقيق في زويلة — الذين يفترض بقاء كثير منهم فيها — في التأثير السوداني الذي نجده حتى اليوم في اللباس، والفلكلور، والعادات المتبعة في احتفالات الزواج"[٤٠]. ثم يضيف واصفا: " التي كانوا يمارسونها في حلقات الرقص والغناء والطرب في مناسبات الأفراح ".

لقد انتشرت القبائل الأمازيغية وامتدت من مصر شرقا، حتى المغرب الأقصى غربا بما في ذلك ليبيا، وبانتشار الإسلام في هذه المنطقة انتشرت اللغة والعادات العربية، فقد وجدت هذه العادات والتقاليد العربية قبولا حسنا، وإعجابا لدى الأمازيغ إلى حد أن كثيرا من القبائل الأمازيغية بدأت تراجع أنسابها وتصلها بأصول عربية قديمة، فقد ادعت هوارة، وأهل ودان أنهم ينحدرون من أصول يمنية[٤١]. بهذا المعنى يكون المؤرخون قد أجمعوا على أن عادات الأمازيغ وتقاليدهم، لم تتغير كثيرا طيلة تلك القرون ، ونحن هنا نذكر على وجه التحديد: العائلة، واللباس، والمسكن[٤٢].

ثمة معطيات وتساؤلات تفرض نفسها على الباحث عند إقدامه على تحديد ظاهرة الفتح العربي الإسلامي لفزان. تساؤلات لا تجد لها دفعا ولا نقصا: هل من الممكن أن تكون الشجاعة, وقوة العقيدة وحدهما وراء النجاح في العمليات الحربية للمسلمين دون أن يكون معهما شيء من الكفاية الحربية في القيادة وأساليب القتال ؟ وهل من الممكن أن يكون من العرب رواد في كل نواحي العلوم الطبيعية والاجتماعية ولا يكون منهم رواد فن الحرب ؟

ويأتي الرد من أي مجيب سواء من أهل العلم المختص، أو من العامة بالنفي. فالجغرافية العسكرية كعلم تطبيقي في تعريفها الدارج " حقل متخصص من الجغرافيا بالتعامل مع الظاهرات الطبيعية والظاهرات التي صنعها الإنسان والتي قد تؤثر في مسار العمليات العسكرية، أوالتخطيط لها[٤٣]. وعلى ذلك فقد عمل القادة على دراسة أحوال وخصائص البلاد والمناطق بواسطة العيون وما شابهها من جمع للمعلومات، قبل إرسال الجيوش عن مواطن القوة والضعف فيها، سعيا لحصول النصر، وتجنبا لوقوع الهزيمة. إذ أن في التعرف على مسالكها ودروبها، وموارد مائها، ونباتها، ومعالم سطحها، إدراك لمواطن القوة والضعف فيه، وهذا أمر سيحسن الأعداء استخدامه. فهم أدرى من غيرهم بطبيعة بلادهم، وبالتالي فهم سيدركون ما يدركه عدوهم عنها، ويكون بإمكانهم إعداد الخطط الملائمة على أرض أصبحوا يعرفونها كما عرفها أصحابها. وبذلك لن تكون الأرض إلا لصالح من يحسن استخدامها، وتسخير مواردها، ويستفيد من إمكانياتها[٤٤].

وتأكيدا لهذا الطرح، تكفي الإشارة هنا إلى ما عناه الباحث محمد أحمد حسونة[٤٥] في تحليله لأهم العوامل الجغرافية التي ساعدت العرب في فتوحاتهم حيث يورد من العوامل أن العرب لم يخرجوا في عملية الفتح عن بيئتهم الطبيعية المعروفة، إذ وجدوا أنفسهم في بلاد صحراوية الأرض والأحوال الجوية, لا تختلف عن موطنهم، بل هي بلاد متممة لها، كما تعتبر الصحراء ملاذهم، ويعتصمون بها، ويستندون إليها، ويتخذونها حاجزا بينهم وبين أعدائهم.

وبالفعل، فلقد تباينت الروايات التاريخية حول تحديد السنة التي تم فيها الفتح الإسلامي لفزان. فعندما نقول بين سنتي " 22 - 49 هـــ "، فهناك احتمال بعيد واحتمال قريب وبينهما مجموعة احتمالات، وهي بقية الأعوام " 42، 43،46 هـــ "، ويهمنا هنا أن نتساءل عن خلفية كل سنة من هذه السنوات المفترضة ؟ ما دلالتها وموقعها ؟

إن تعارض هذه النصوص مع ما أسفرت عنه هذه الإشكالية، فليس عقبة حقيقية تمنع من قبولنا لهذه النصوص كما سنوضحها في مناقشتنا التالية للأدلة التي سيتم طرحها، لإثبات مدى مصداقية ذلك، وليس معنى هذا أننا لا نعترف بالشواهد سالفة الذكر، وكل ما في الأمر إننا نسعى من وراء هذه المناقشة إلى التوفيق بين النصوص التاريخية والواقع التاريخي الذي صحبها، ومناقشتها التالية تدور حول الأسباب التي ارتكن عليها أصحاب الرأي المتمسك بالواقع التاريخي تبريرا للأخذ بالنصوص التاريخية ؟

فعندما نقول سنة 22 هـــ / 643 م، فمن هنا نلفت النظر تحديدا إلى أن ابن عذاري[٤٦] الذي يكاد ينفرد بالإشارة إلى أن عمرو بن العاص بعدما افتتح مصر سنة 20

هـــــ / 641 م " وجه عقبة بن نافع إلى زويلة وبرقة فافتتحها، ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها. ويستدل من هذا النص على عمرا، قد اتخذ من أعمال عقبة وسيلة للاستطلاع والتعرف قبل أن يذهب بنفسه لفتح برقة.

وثمة إشارة أخرى ذات دلالة في السياق وهي للباحث المقتدر إحسان عباس، في قوله: إن هذه الرواية غير مستبعدة من حيث الدلالة على قيمة الريادة والاستطلاع وحذر عمرو، فإنها تعد من ذلك النوع الذي يعاني من الإيجاز المخل، ذلك أن عمرو بن العاص ليس من الطبيعي أن يبعث عقبة إلى برقة قبل فتح الإسكندرية، كذلك فإن قول الرواية " فافتتحها " ثم قوله: " ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها " غير منسجمين معا، وهذا تنافر بين أول الرواية وأخرها، ونرى ابن أبي دينار قد تصرف فيها، فذكر فتح الإسكندرية أولا، ثم أسقط ذكر برقة من سائر الرواية، فقال: " لما فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية بعث عقبة إلى برقة وزويلة وما جاورهما من البلاد، فصارت تحت ذمة الإسلام، فغزا مدينة طرابلس وفتحها ". فابن أبي دينار لا يذكر هنا أن عمرو بن العاص صالح برقة بعد أن صالحها عقبة، لأن ذلك شيء لا يوحي بالانسجام[٤٧]. والأقرب إلى المعقول هو ما تتفق عليه الروايات الأخرى أي أن الذي سار للفتح هو عمرو بن العاص، وفي جيشه عقبة بن نافع، فلما فتح برقة في أواخر سنة 21 هـــــ / 642 م. أرسل عقبة في حملة إلى الداخل، فجاب البلاد حتى زويلة، فأما عقبة بن نافع فإنه توغل في فتوحاته حتى بلغ زويلة، وكان من ثمرات أعماله أن تمهد الفتح الأول في مناطق صحراوية نائية حتى أن عمرا كتب إلى الخليفة يعلمه " أنه ولى عقبة بن نافع المغرب فبلغ زويلة، وأن ما بين زويلة وبرقة سلما كلها حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية "[٤٨]. هذا احتمال أول.

أما الاحتمال الثاني، فعندما نقول فيما بين سنتي " 41- 43 هـــ "، فإنه يبدو أن كانت لعقبة بن نافع جولة صحراوية، شملت الدواخل التي بلغت مدينة غدامس. فبدأ عقبة بإخضاع لواتة في برقة، ثم أخضع هوارة القاطنة في سرت وما وراءها إلى الجنوب، وإلى جبل نفوسة، فوصل بجيشه غدامس سنة 42 ه، ففتحها وفتح ما حولها من الواحات، ثم رجع على إثر ذلك إلى مصر سنة 43 ه، فوجد عمرو بن العاص في مرض موته، حيث توفي عمرو في شوال من السنة نفسها. وفي هذا السياق يذكر الطاهر الزاوي: إذا صحت أخبار هذه السرية، فإنها كانت في الفترة ما بين غزوتي معاوية بن خذيج[٤٩].

تأسيسا على ما تقدم يمكن القول بأن شواهد النصوص هنا ليست واضحة كل الوضوح فيما يتعلق بالتتابع الزمني للأحداث. ذلك أنه إذا كان من الصعب تحديد مكان وجود عمرو بن العاص عندما بعث بعقبة إلى زويلة، فإن هذا يفتح الباب أمام احتمالات أخرى، إذ ربما كان في برقة أو مصر قبل أو بعد فتح طرابلس وصبرة وجبل نفوسة. ومن هنا فالأمر بالغ الغموض. ذلك إننا لا نعرف عما إذا كانت حملة عقبة الصحراوية سبقت أو لحقت سيطرة بسر بن أبي ارطأة لودان. فقد سكت المؤلفون عن ذكر ما إذا كان عمرو قد ترك قوات في طرابلس والساحل، أو انسحب بكامل جيشه إلى برقة ومصر بعد منع الخليفة عمر له من التوسع غربا، وعما إذا كان الشاطئ تبعا لذلك آمنا أو غير آمن[٥٠]. ليس هذا

وحسب، بل إن من المحتمل أن تكون فترة ما بين سنتي " 41 – 43 ه " هي الحملة التي قادها عقبة بن نافع على فزان وكاوار، من قبل وإلى مصر عمرو بن العاص في خلافة معاوية بن أبي سفيان، التي أعاد فيها عقبة السيطرة على ودان، والتي تم فتحها من قبل على يد بسر بن أبي ارطأة، وذلك بعد أن نقضوا عهدهم، كما وتم في هذه الحملة من فتح غدامس سنة 42 هـ[٥١].

إننا لا نعرف ما إذا كان عمرو بن العاص، قد أرسل عقبة بن نافع إلى زويلة وبسر بن ارطأة إلى ودان في وقت واحد، ولا عن السبب الذي يكمن من وراء إرسال هذين الجيشين والتي لا يستبعد أن تكون حملة عقبة بن نافع الأولى لا تعدو على أن تكون سرية استطلاعية، أو محاولة لفتح الواحات الداخلية، وذلك للسيطرة على نقطة التقاء للطرق العابرة للصحراء[٥١].

لا يزال هناك احتمال آخر إلى جانب الاحتمالات السابقة، وهو سنة " 46 – 49هـ "، فسنة 46 ه تصادف تلك الحملة التي قادها عقبة بن نافع إلى فزان وكاوار سنة " 46هـ / 667م "، إذ يستند على النص الذي أورده ابن عبد الحكم، ويبدو أن ابن عبد الحكم قد أسقط ذكر زويلة من تلك الرواية، حيث ترآى له أن مدينة زويلة لم تقم بعد. وقيل: إن غدامس فتحت سنة 46هـ في عهد معاوية الذي باشر فتحها عبد الله بن أبي ارطأة الذي بعثه عقبة بن نافع، وقيل: الذي باشر فتح غدامس عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[٥٢].

وأما الاحتمال الآخر، وهو سنة 49ه، فيذكر الزاوي أن مدينتي غدامس وزويلة قد تم فتحها سنة 49هـ، وأشار إلى أن زويلة بعد أن نقض أهلها العهد الذي قطعوه، أعاد عقبة فتحها سنة 49هـ، بعد أن فتحها سنة 22هـ [٥٣].

*** استمرارية المدينة**

ولقد نوهت بعض المصادر الجغرافية على استمرارية مدينة زويلة في ممارسة دورها السياسي والتجاري معا، وذلك عندما سيطرت كانم على إقليم فزان. فقد أشار ابن سعيد[٥٤] إلى ذلك معتبرا أن زويلة لا تزال حاضرة فزان. إلا أن هناك رواية أخرى تزعم بأن تراغن قد حلت محل زويلة، ويستدل من الرواية الأخيرة أن أهميتها السياسية العسكرية قد تلاشت، وأصبحت تؤدي وظيفة اقتصادية واجتماعية غير الوظيفة التي أنشئت من أجلها، وبذلك تكون زويلة قد فقدت مكانتها السياسية والإدارية، كحاضرة لإقليم فزان.

والحق أنه إذا كان يصعب علينا معرفة زمن السيطرة الكانمية التي امتدت حتى مسافة مائتين وخمسين كيلو مترا من الحر المتوسط وتركت آثارا يمكن ملاحظتها حتى اليوم، فهل كان الطريق العابر للصحراء، والذي كان من بدايته حتى نهايته تحت سلطة نفس الملك، قد عرف طريقا آمنا في سلم مستمر، وبالتالي لم يكن مثار أسئلة المؤرخين أو تعليقاتهم ؟ وهل يتعين علينا في مثل هذا الوضع أن نسلم بأن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها ؟ وأن جهلنا سيظل قائما إلى أن يتم الكشف عن وثائق ومخطوطات جديدة. على الرغم من أن بعض المصادر تكاد تجزم بأن ليس في حوزة الفزانيون مخطوطات في هذا الشأن[٥٥].

*** توقف دور المدينة التاريخي**

وهكذا، فإذا كان السبب وراء التوسع الصحراوي هنا يبدو واضحا، وهو الرغبة في السيطرة على الطرق العابرة للصحراء عمليا حتى نهايتها على الساحل المتوسطي. وهناك إشارة ل" تجاني " وهي تخبرنا عن هدف " دونما ديبلام " من الاستيلاء على ودان، فإننا من وجه آخر لا نعرف شيئا عن الأسلوب الكانمي في إدارة الصحراء الليبية. فقد سكت المؤلفون العرب عن هذا الموضوع، والروايات التي جمعها المستكشفون من القرن التاسع عشر الميلادي هي الوحيدة التي يمكن أن تساعدنا في هذا الخصوص(٥٦).

لقد احتفظت زويلة بأهميتها التجارية، ولكن تراغن أصبحت مقرا للكانمين، وبذلك فقد فقدت زويلة أهميتها السياسية والعسكرية، وتلاشت تماما، إلا أنها احتفظت بوظيفتها الاقتصادية، والاجتماعية غير تلك الوظيفة التي أنشئت من أجلها، وبذلك فقد ساعدت هذه العوامل على بقاء واستمرار هذه المدينة عبر قرون طويلة، رغم تضاؤل أهميتها، وتقلص دورها السياسي، وذلك عند سقوط مملكة بني الخطاب الهوارية.

ترى ما هي الكيفية التي انتهت بها مدينة زويلة كحاضرة لفزان؟

إن مدينة زويلة أخذت تواجه – منذ نهاية القرن السادس الهجري – عددا من التحديات التمدنية، والاضطرابات السياسية التي ساعدت بمرور الزمن على انحلال وضع المدينة، وتضاؤل أهميتها، ومن تلك التحديات والتطورات المتمثلة في الآتي: –

١– اعتبار أن مدينة زويلة من المدن المركبة، وذلك لوجود عدد من الضواحي، أوالمدن الصغيرة التي تأسست على إثرها، وذلك نتيجة لظروف سياسية، أو شخصية إلى جوارها، أو بالقرب منها، ولكنها نمت وتطورت على حساب زويلة، فقد قام الحكام الكانميين بتأسيس مدينة تراغن، بعد أن تسنى لهم القضاء على حركات التمرد التي قادها قراقوش، وإبنه من بعده من جهة، وبنو غانية — المرابطون — من جهة ثانية، كما أومأت عن ذلك في موضع سابق. فعلى إثر ذلك أصبحت مدينة تراغن الحاضرة السياسية والإدارية لإقليم فزان، بعد أن سلبت هذه الوظيفة من مدينة زويلة، ثم أخذت منها تلك المكانة مدينة مرزق عاصمة أولاد محمد الفاسي (٥٧)، وذلك في حدود عام 1550م، فقد لعبت تلك المدن سالفة الذكر، دورا بالغ الأهمية من ذاك الذي لعبته في سابق عصرها، وبالتالي فقد ظلت على ما هي عليه، حتى بعد أن سلبتها المدينتان اللاحقتان " تراغن، ومرزق " الدور السياسي.

هكذا بقيت زويلة مركزا للتجارة، والتجار، والصناع والحرفيين، ولكن قيام مدينتي تراغن ومرزق، اللتين سلبتها الوظيفة السياسية والإدارية منها، لاشك أن ذلك ألحق بمدينة زويلة ضررا وضربة قاضية، حيث أصبحتا المدينتين اللاحقتين بها، كلما قطعتا مرحلة في سبيل التقدم والرقي، تخطو زويلة بجانبها مرحلة إلى الوراء في طريق التدهور، والانحطاط السياسي.

٢– عوامل تمدنية سياسية وهي تتمثل في غزو الكانميين لإقليم فزان بما في ذلك زويلة. فقد زحف هؤلاء بكل ما يملكون من عتاد وقوة، بتشجيع من ملكهم دونما ديبلام بخططه الرامية، ببسط نفوذه على طرق القوافل التجارية عبر فزان.

تأسيسا على ما تقدم، فإنه ليس بالمستبعد أن تكون مدينة زويلة، على اعتبارها منطقة عبور واستقرار، منطقة جاذبة للعديد من الجماعات، والأفراد بهدف الإقامة والاستقرار، أو كان الهروب إليها من أوضاع اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية في أوطانهم فتجد في هذه المدينة البعيدة الأمن والطمأنينة، وفرص العيش الكريم، فكانت زويلة منطقة التقاء لجماعات، وأسر وقبائل مختلفة على مر العصور التي اختلطت بدرجات متفاوتة فيما بينها، وبالسكان المستقرين بها[٥٨]. وقد تعينت لنا معالم كل ذلك من خلال التأكيد على أهمية الاعتبارات الجغرافية والبيئية والتاريخية وأدوارها المؤثرة في بروز نهضة حضارية بإقليم فزان. ولعلها نهضة، كما أكدت على ذلك عينات من المصادر التي رجعنا إليها في الموضوع، أسهم فيها عامل التجارة بجنوب الصحراء والحضارات المتعاقبة عليها إسهاما كبيرا. وأخيرا، إننا لا نزعم بهذه الحوصلة من عملنا أننا بلغنا كل المرام والأهداف من خلال التنقيب في السجلات والوثائق والمصادر، بل إننا نعتبر أن ما رمناه من قصد وغاية المدة الزمنية التي استغرقت منا العمل على هذه الوثائق والسجلات، إنما اردنا من خلالها المساهمة في إعادة ترميم شذرات من التاريخ الوطني الليبي الممتد عبر الحقب والقرون. وهو إسهام لا نفتأ ندعو إليه في وقت تتجدد فيه الدعوة لإعادة كتابة تاريخنا بمنظور تاريخي ومنهج جديدين، وخلصت الدراسة لتأكيد القول بأن هناك دولة في فزان تركت تراثا ضخما ورائعا لم توف حقها من البحث والاعتبار، في الوقت الذي اهتم بها غيرنا. ذلك ما يمثل نقيصة فينا وثغرة في توجهاتنا الثقافية يجب سدها. إن التاريخ غدا اليوم يتجه حثيثا نحو دراسة تاريخ الشعوب، ونعني تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الذي يكاد يضيع ويتلاشى بين صخب الحروب، وبين ضجيج السياسة.

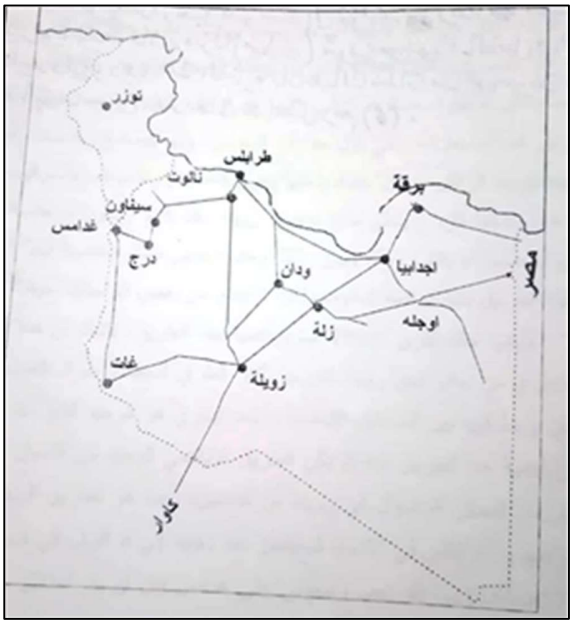

خريطة تبين طرق ومحطات القوافل داخل إقليم ليبيا

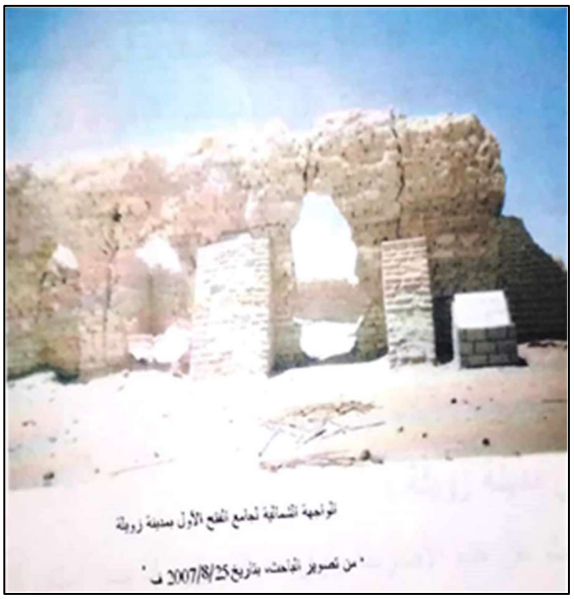

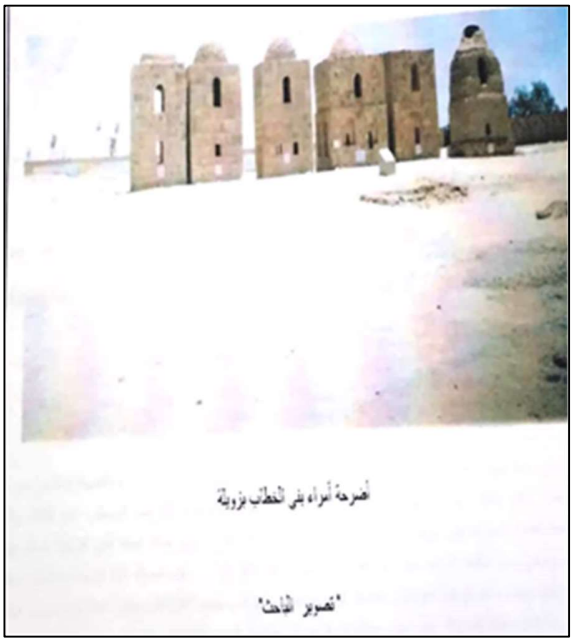

أضرحة أمراء في الخطاب بزويلة

"تصوير الباحث"

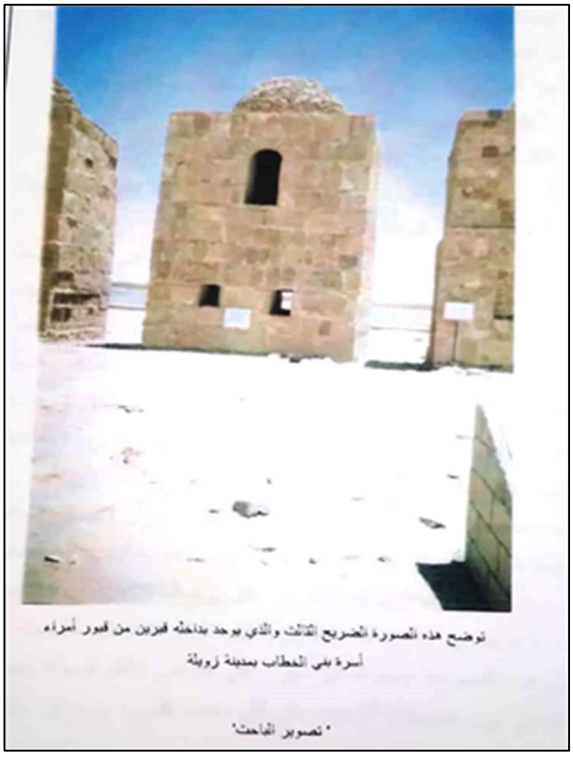

توضح هذه الصورة الضريح الثالث والذي يوجد بداخله قبرين من قبور أمراء أسرة بني الخطاب بمدينة زويلة

"تصوير الباحث"

*** المراجع**

ثيري، جاك، 2004 ف، تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ص17،18.

زليتنر، جان كلود، 2001 ف، طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا " 1500 – 1795م "، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ص8.

النور، أسامة عبد الرحمن، 2002 ف، " وادي النيل النوبي والصحراء الليبية إلى الغرب منه "، ضمن أعمال ندوة التواصل الحضاري العربي السوداني الليبي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس – ليبيا، (تحت الطبع).

النور،أسامة عبد الرحمن، 2003 ف، " الانتقال إلى الاقتصاد الإنتاجي والاكتشافات الآثارية في الصحراء الليبية "، سبها – ليبيا، (تحت الطبع).

شرف الدين، لمياء محمد سالم، 2001ف، " تجارة طرابلس مع بلاد ما وراء الصحراء في العصر الوسيط "، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثالثة والعشرون، العدد الثاني، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ص145.

نفسه، ص 145،146.

شرف،عبد العزيز طريح،1996م، جغرافيا ليبيا، مركز الإسكندرية للكتاب، الطبعة الثالثة، ص293 ؛ وكذلك شرف الدين،لمياء محمد سالم، تجارة طرابلس مع بلاد ما وراء الصحراء، ص146.

شرف الدين،لمياء محمد سالم، نفسه، ص146.

الوزان،الحسن بن محمد الفاسي،1983م، وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص146، 147.

حامد،سعيد علي، 1984م،" زويلة عبر التاريخ "، مجلة تراث الشعب، طرابلس – ليبيا، العدد الثاني عشر، ص25.

مفتاح، صالح معيوف، 2001ف، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية من منتصف القرن الثاني الهجري إلى أواخر القرن الثالث الهجري، رسالة دكتوراه، غير منشورة، الرباط – المغرب، ص56.

شرف الدين، لمياء محمد سالم، نفسه، ص158.

مفتاح، صالح معيوف، نفسه، ص56.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح، 1960م، تاريخ البلدان، بيروت – لبنان،ص345؛ وكذلك البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز، 1992م، المسالك والممالك، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفان وأندري فيري، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، طرابلس – تونس، ص257،258.

المصراتي، علي مصطفى، " غدامس "، مجلة الحصاد،(د. ت)، بدون عدد، منشورات أسو 2 ، طبع في المانيا الغربية – أنتيرنت، شركة محدودة – بون، 61.

الحموي، أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، الجزء الرابع، دار بيروت للطباعة والنشر، بدون تاريخ،" فزان "؛ ثيري، جاك، نفسه، ص458.

الرباصي، مفتاح يونس، ازدهار تجارة القوافل بين الدولة الحفصية ودولة الكانم والبرنو، مجلة الساتل، ص95.

نفسه، ص95.

الطيبي، أمين توفيق، 1998م، أثر الإسلام الحضاري في غانا ومالي في العصر الوسيط، ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس – ليبيا، ص124.

الحموي، أبو عبدالله ياقوت، معجم البلدان، الجزء الرابع، ص90.

الرباصي، مفتاح يونس، نفسه، ص96.

أيوب، محمد سليمان، معالم أثرية من جنوب ليبيا، مصلحة الآثار، مراجعة سعيد علي حامد، محمد علي عيسى، بدون تاريخ، ص97.

ليفيتسكي، تاديوز، 1997م، تاريخ أفريقيا العام " أفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر "، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، ص320.

ثيري، جاك، تاريخ الصحراء الليبية، ص76، هامش رقم(3).

الزاوي، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1963،ص ص206،207،216، هامش رقم (1).

أيوب، محمد سليمان، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور وحتى عام 1811م، المطبعة الليبية، طرابلس – ليبيا، بدون تاريخ، ص90؛ وكذلك شرف الدين، لمياء محمد سالم، تجارة طرابلس مع بلاد ما وراء الصحراء، ص154.

أيوب، محمد سليمان، نفسه، هامش رقم (1)، ص74.

هورنمان، فريدرك، 1993 م، الرحلة من القاهرة إلى مرزق حاضرة فزان عام 1797م، تعريب مصطفى محمد جودة، منشورات دار الفرجاني، طرابلس – ليبيا، ص77.

حامد، سعيد علي، زويلة في التاريخ، ص23.

ميسانا، غاسبري، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق حسنين، الناشر، مصطفى العجيلي، (د. ت)، ص111.

التيجاني، أبو محمد عبد الله، رحلة التيجاني، 706، 708ه، دار الفرجاني، طرابلس – ليبيا، بدون تاريخ،ص ص110، 114؛ وكذلك غانم، عماد الدين، الدواخل الليبية، ص32.

غانم، عماد الدين، نفسه، ص33.

نفسه، ص33.

نفسه، ص33.

نفسه، ص ص33، 34.

أيوب، محمد سليمان، مختصر تاريخ فزان،ص ص97، 98.

الماعزي، الأمين محمد، سكان فزان،الجزء الأول، ص37.

نفسه، ص37.

ثيري، جاك، تاريخ الصحراء الليبية، ص473.

البرغوثي، عبد اللطيف محمد، تاريخ ليبيا الإسلامي، ص373؛ وكذلك مفتاح، صالح مصطفى 1978م، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ص176.

ثيري، جاك، نفسه، ص410.

محمود، محمد جمال الدين، 1994 م، العسكرية في الإسلام، سلسلة إقرأ، العدد 598، دار المعارف، القاهرة.

العزيزي، هاني عبد الرحيم، 1996م، صور من الجغرافيا العسكرية في التراث العربي، مجلة جند عمان، العدد مئتان وخمسون.

حسونة، محمد أحمد، أثر العوامل الجغرافية في الفتوحات الإسلامية، دار نهضة مصر للطبع والنسر، القاهرة، بدون تاريخ.

المراكشي، محمد بن عذاري، 1980م، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، الجزء الأول, بيروت – لبنان، دار صادر، الطبعة الثانية، ص15.

عباس، احسان، تاريخ ليبيا منذ الفتح، ص19.

نفسه،ص ص19، 20.

الزاوي، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح، ص85.

ثيري، جاك، تاريخ الصحراء الليبية،ص ص79، 80.

المراكشي، محمد بن عذاري، نفسه، ص15؛ وكذلك عبد الحميد، سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، الجزء الأول، ص185.

مفتاح، صالح مصطفى، ليبيا منذ الفتح العربي، ص28.

الغدامسي، أحمد محمد، تاريخ غدامس، ص35، 37.

الزاوي، الطاهر أحمد، معجم المدن الليبية،ص ص117، 241، 242.

الأندلسي، علي بن سعيد، 1958م، بسط الأرض في الطول والعرض، تطوان – المغرب، ص61.

ثيري، جاك، تاريخ الصحراء الليبية، ص364.

نفسه، ص362، 363.

الزاوي، الطاهر أحمد، 2004ف، أعلام ليبيا، دار المدار الاسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ص ص193، 402،409.

الهازل،علي عمر، 1991م، تقرير عن المؤتمر العلمي حول الواحات العربية في ليبيا: التاريخ – التراث – وآفاق المستقبل، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثالثة عشر، العدد الثاني، ص 7،8.